«وماذا بقي ايتها العزيزة . اليس عندكم بالآت ومنتزهات لتظهري فيها جمالك الساحر وقوامك الفتان وتقتلي السئامة والضجر . اف من القعود في البيت و ياما احلى الخروج منه لتزيين الشوارع والاسواق مع باقي السيدات . فلعلك ياحبيبتي تزينين في كل صباح ومساء ربى لبنان اذ تتنزهين بين اشجاره وازهاره لطرد الانقباض من صدرك فارى من ههنا تغامز الطيور عليكِ وهي واقفة على اشجار الارز حين مرورك من تحتها . واسمع الازهار تنكس رؤوسها خجلاً منكِ حين مرورك بينها

«فهل ياعزيزتي يجوز لفتاة سعيدة مثلك محبوبة الى الناس والى الطبيعة مثل هذا الحب ان تترك الحزن والقلق يدخلان الى نفسها . ام هنالك سبب آخر تكتمينه عن صديقتك ومحبتك . افتحي لي خبايا قلبك ياعزيزتي واعلمي انك تخاطبين مَنْ هي اصدق لكِ من شقيقتك « سليمه »

باب التربية والتعليم

يكون الرجال كما يريد النساء
فاذا اردتم ان يكونوا عظماء وفضلاء
فعلموا النساء ما هي العظمة والفضيلة

ليست وظيفة المدرسة مقصورة على
تعليم العلوم فقط فان بث الفضيلة
والاقتدار من اخص وظائف المدرسة

اللغة العربية الجديدة

﴿ واللغة القديمة ﴾

(ما في اقتراح المستر ويلمور من الصواب)

اتينا في الجزء السابق على تفصيل المناظرة التي جرت في القطر بشان ما اقترحه المستر ويلمور من وضع اللغة العامية في مصر موضع اللغة الفصحى في تعليم الشعب المصري والكتابة له . وذكرنا ردود مناظريه عليه ونقضهم اقواله . ثم قلنا في ختام ذلك الفصل ان في اقتراح المستر ويلمور عبرة وفائدة ووعدنا بذكر هذه العبرة والفائدة وانجازًا للوعد نقول

يزعم بعض فلاسفة العمران ان في كل قولٍ حتى ما كان منه خطاء شيئًا من الصواب . واقتراح المستر ويلمور هو من هذا القبيل . فانه خطاء محض اذا نظرتَ اليه من جهة

لفظه ولكنّ فيه شيئًا كثيرًا من الصواب اذا نظرتَ اليه من جهة معناه . وغرضنا الآن الاشارة الى هذا الصواب

وبعبارة اخرى نقول ان المستر ويلمور مصيب كل الاصابة اذا كان غرضه في اقتراحه هذا انشاء اسلوب جديد للكتابة يفهمه جميع ابناء اللغة . فان اللغات لا يمكن استبدالها لان ذلك فوق طاقة الانسان وانما يمكن تغيير اسلوبها كأن يُهجر القديم البالي الذي كان حسنًا في عصره الى الجديد الذي هو حسن ومفيد في هذا العصر . فاذا نظرنا الى اقتراح المستر ويلمور من هذا الوجه تغيرّت مسألته وصار المقصود بها « تسهيل اللغة الفصحى على المعلمين والمتعلمين » لا استبدال اللغة العامية الساقطة بها . وحينئذ يكون صوته الجهوريُّ الذي دوى في فضاء مصر صوتًا يدعو الى امر في غاية الاهميـة ويشير الى احدى مصائب العلم والتعليم في اللغة العربية

نقول ذلك لاننا لا نجهل المصاعب العديدة التي تعترض طلبة العلم وناشريه في اللغة العربية . فاننا نعرف كثيرين من المعلمين يحسبون العلم محصورًا في اللغة ولذلك يصرفون اليها عقول تلامذتهم دون سواها من الفروع التي توسع دائرة العقل وتنمي الادراك . فيشب الولد بين ايديهم ويخرج من مدرستهم وهو لا يعرف غير « ضرب اضرب ضرَّب ضارب تضرّب » وهذا بلاءٌ شديد على الشرق . وانما كلامنا هنا عن المعلمين في المدارس الابتدائية التي هي بمثابة القوالب الحقيقية الاولى التي تتكون فيها عقول الطلبـة ونفوسهم فاذا كان غذاؤها قويًا من لباب العلم وثمار المعارف الحقيقية شبت قوية وكان في امكانها بلوغ حد البلوغ والرجولية . واذا كان غذاؤها ضعيفًا من قشور اللغة وما يتبعها من صرف ونحو وشعر دون سواها من المبادىء التي تقدم ذكرها فانها تبقى طفلة وان بلغت في العمر مبلغ الرجال

وكما ان هذا البلاء شديد على بعض المعلمين والمتعلمين في الشرق فهو شديد على بعض الكتاب ايضًا . فان هؤلاء الكتّاب يصرفون اعمارهم في تصفح كتب اللغة القديمة وانتحاء مناحي بلغاء المتقدمين فينطبع في نفوسهم ان صناعة الكتابة لا تقوم الا بتنميق العبارة وذكر المترادفات من الالفاظ وانتقاء الضخم منها حتى انك حين قراءتها تخالها كالبندق الذي قال فيه الشاعر « خلي من المعنى ولكن له فقش » . وعلى ذلك تصير الكتابة عندهم عبارة عن الفاظ واسعة الاكمام ضخمة الاجسام يضيع فيها المعنى الذي تدلُّ عليه كما تضيع كأس من السكر في بركة من الماء البارد . او تكون اسلوبًا جافًا ناشفًا تنتظم فيه

معانٍ قليلة بسلك معوج لا يفهمه القارىء الا اذا راجعه عدة مرات وربما راجعه طول النهار اذا كان ضعيف الفهم ولم يفهم منه شيئاً

فالفضل العظيم الذي يرجع الى المستر ويلمور في هذه المسالة هو في راينا حذفه مسالة اللغة بكلمة واحدة وذلك بقوله « استبدلوا العامية بالفصحى » فكانه قال للذين يقدّمون اللغة على كل شيء : انكم تشتغلون بالقشر وتتركون اللب فدعوا القشر واذا كانت لغتكم تحول دون تركه فاتركوها هي نفسها ايضاً واتخذوا اللغة العامية بدلاً منها طلباً للب الذي هو العلم الحقيقي والفائدة الحقيقية

اما نحن فاننا نقول للمستر ويلمور اننا نعدُّ هذا القول جناية على اللغة العربية . لان هذه اللغة الجميلة الحلوة لا اسهل منها على من يحسن تسهيلها ولا اطوع منها لمن يُحسن التصرف باساليبها . فالعجز اذاً انما هو في نفوس اهل اللغة لا في اساليب اللغة نفسها

وهنا نصل الى النقطة الهامة في هذا البحث . فنسال المستر ويلمور الاّ يعدل عن اقتراحه اذا ثبت له ان اللغة الفصحى قد تقوم بوظيفة اللغة العامية من ابلاغ المعاني الى افهام العامة . وهذا امر ممكن . وايضاحاً لذلك نقول

تقتضي « المخاطبة » ثلاثة امور . الاول المعنى الذي في ذهن المتكلم . والثاني الكلام الذي يُراد ايصاله الى فهم المخاطب . والثالث فهم المخاطب نفسه . فاذا كان معنى الكلام والكلام نفسه صريحين واضحين مسبوكين باسلوب على قدر فهم السامع وصل ذلك المعنى الى ذهن المخاطب بلا عناء ولا مشقة . فالعمدة في ذلك اذاً « المعنى » « والكلام » « والاسلوب »

وبناء عليه اذا كان المتكلم مالكاً زمام المعنى ووضعه في الفاظ بسيطة حسنة مفهومة لدى العامة وسبكه باسلوب بسيط ايضاً تحتم وصول ذلك المعنى من ذهن المتكلم او الكاتب الى ذهن المخاطب لا محالة

مثال ذلك العبارة التالية

« ان المقصود بالسنن الموضوعة في السياسات كلها هو المدينة والكل لا الشخص »

فهل يعرف القارىء من اين اخذنا هذه العبارة ؟ لقد اخذناها من كلام للفيلسوف بن رشد في تعريبه كلاماً لاريسطو . واصلها هكذا « هذه السياسات كلها المقصود بالسنن الموضوعة فيها انما هو المدينة والكلّ لا الشخص » فانظر ايهما اقرب الى افهام القراء في هذا الزمان

وليس المراد بذلك ان العبارة التي بسطناها اولاً هي ابلغ من العبارة الثانية التي خطها قلم بن رشد كبير فلاسفة العرب واميرالبلغاء . ولكن المراد انها اقرب الى افهام القراء في هذا الزمان . وقد قال الجاحظ « كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عامياً ولا ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشياً الا ان يكون المتكلم به بدوياً اعرابياً فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشيّ من الناس كما يفهم السوقيُّ رطانة السوقي » ومن ذلك يثبت ان الفهم هو شرط الجواز في استعمال المعاني والالفاظ

ولكن قد يصيح هنا كثيرون من محبي اللغة ويقولون ان ذلك يقتل ملكة البلاغة والفصاحة لانه يضيق دائرة اللغة ويقضي على اساليبها الجميلة وتعابيرها الانيقة . اذ ماذا يحل بنا وبلغتنا اذا وجب علينا ان لا نخاطب الناس الا بما يفهمونه ؟ . فالجواب عن ذلك سهل جداً على المستر ويلمور وهو قادر على ان يحجهم من كلام ائمة البلاغة انفسهم . قال الامام فخر الدين الرازي « اعلم ان الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد . واصلها من قولهم افصح اللبن اذا ذهبت عنه الرغوة . وهي بالاصطلاح عبارة عن الالفاظ المبينة الظاهرة المتبادرة الى الفهم والمانوسة الاستعمال لمكان حسنها »

وقال ابو هلال العسكري « سميت البلاغة بلاغة لانها تُنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه » والبلاغة ماخوذة من قولهم « بلغتُ الغاية اذا انتهيتُ اليها وبلغتها غيري » وقال في الفصاحة « اما الفصاحة فقد قال قوم انها من قولهم افصح فلان عما في نفسه اذا اظهره . والشاهد على انها هي الاظهار قول العرب افصح الصبح اذا اضاء » وقال في موضع آخر « يسمى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً اذا كان واضح المعنى سهل اللفظ وجيد السبك غير مستكره فج ولا متكلف وخم ولا يمنعه من احد الاسمين شيء لما فيه من ايضاح المعنى وتقويم الحروف »

وقال صاحب المثل السائر « ان الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن واعني بالظاهر البين ان تكون الفاظه مفهومة لا يُحتاج في فهمها الى استخراج من كتاب لغة . وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مالوفة الاستعمال »

هذا ما يعتقده في الفصاحة والبلاغة ائمة اللغة وكتابها . واذا كان فهم السامع كلامَ المتكلم والقارىء كلامَ الكاتب هو الشرط في الفصاحة والبلاغة فقد جاز ان يُقال ان البلاغة والفصاحة عند الامم تكونان بحسب اخلاقها وعاداتها وحاجاتها واساليبها . فما يكون بلاغة وفصاحة في البدو لا يكون بلاغة وفصاحة في الحضر . وما يكون بليغاً لدى العرب

لا يكون بليغاً لدى الافرنج و بالعكس . فبناءً على ذلك يجب على المعلمين والكتاب ان لا ينقيدوا بالماضي تقيد الاعمى فان « الماضي » انما هو الطفولية كما قال باكون والانسانية تتقدم صاعدة شيئاً فشيئاً في مراقي الزمن الازلية . وهي جسم حيٌّ كل ما فيه نامٍ : جسمه ونفسه ولغته فاذا تقدمت النفس وارتقت و بقيت اللغة متاخرة جامدة صارت النفس خرساء لا تحسن التعبير عن حاجاتها

فيؤخذ من ذلك كله ان المستر و يلمور مصيب في طلبه « لغة جديدة » غير « لغة الطفولية » ولكن هذه اللغة الجديدة المطلوبة التي تقتضيها حالة العصر و يوجب سير التمدن قيامها ليست اللغة العامية لان هذه لغة ساقطة ولكنها لغة بين اللغة الفصحى القديمة التي لا يفهمها العامة والخاصة ايضاً و بين العامية . وهذه اللغة الجديدة موجودة الآن وهي لغة المجلات والجرائد التي تُحسن اختيار الفاظها واساليبها وتتقي الخطاء فيها . فما طلب اذاً المستر و يلمور الا شيئاً موجوداً

نتج اذاً ان اللغة الجديدة التي ستكون اللغة العربية في المستقبل هي تلك اللغة البسيطة السهلة التي لا يكون فيها لفظ غير مالوف الاستعمال ولا تعبير من التعابير البدوية القديمة التي لا مسوغ لاستعمالها في زمن كهذا الزمان . هي تلك اللغة التي تغيب الفاظها وراء عرائس المعاني كانها زجاج شفاف يظهر باطنه مع ظاهره او نبع صافي الماء تُعدُّ في قعره درر الحصى واحدة واحدة . هي تلك اللغة التي يقرأ ابناؤها مقامات الزمخشري والحريري واليازجي ورسائل الخوارزمي والهمذاني فياسفون على الوقت والقوى التي انفقوها في صف الالفاظ بعضها وراء بعض ويضحكون من تلك الكلمات الغريبة والاساليب العجيبة كما ضحك اعرابي من بيت لابي تمام تُلي عليه فلم يفهمه وقال انه ليس بعربي . هي تلك اللغة التي اذا مات رجل عظيم من ابنائها قال كاتبها في تأبينه « مات رجل عظيم » لا « كسفت الشمس وخسف البدر ومادت الجبال وغارت البحار » . بل هي تلك اللغة التي كل كاتب وكل معلم من ابنائها يكتب في دفتره الخصوصي مقال الجاحظ « ليست الفصاحة بالتفصح لانه لا يزيد متزيّد في كلامه الا لنقص يجده في نفسه »

وربما اتينا في عدد قادم على امثلة من اللغة القديمة والحديثة ماخوذة من الكتابات القديمة والحديثة ليعلم القارىء منها ان في القديم شيئاً كثيراً حديثاً وفي الحديث شيئاً كثيراً قديماً